مدة مكث المهاجرين في أرض الحبشة

لقد مر بنا الحديث عن بداية هجرة أصحاب رسول الله ﷺ وهي السنة الخامسة من البعثة الشريفة، وهذا باتفاق أهل السير والمؤرخين على حد سواء، ولا يوجد خلاف في بداية الهجرة سواء الأولى أو الثانية ولقد تم هذا خلال شهور معدودات.

أما عودتهم من الحبشة إلى الجزيرة العربية فلم تكن دفعة واحدة، بل حدث ذلك خلال فترات مختلفة ومتباعدة، فبعد أن اكتملت هجرتهم إلى الحبشة باكتمال الهجرة الثانية التي قادها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لم يعد أحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الحبشة إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة إلا بعد أن أذن الله للمسلمين أن يهاجروا إلى المدينة المنورة، مما يعني أن مهاجرة الحبشة استقروا في مهجرهم ولبثوا هناك بضع سنوات قبل أن يرجع أحد منهم إلى أرض الجزيرة، إنه لم يعد أحد منهم خلال ثماني سنوات تقريباً أما كيف عادوا إلى الجزيرة، فالثابت أنهم قدموا من الحبشة عدة مرات متباعدة. ويأتي تفصيل لهذا.

عودة الفوج الأول من مهاجرة الحبشة:

ففي حديث عائشة الذي رواه البخاري نأخذ الجملة التالية: «فقال النبي ﷺ: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين. وهما الحرتان». فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة»[1].

(١) انظر صحيح البخاري ٥/٧٣، ومسند الإمام أحمد ٦/١٩٨.

إن الحديث ربط بين مشروعية الهجرة وعودتهم إلى الجزيرة.

لقد عاد الفوج الأول عندما علموا بالحدث الجليل المتمثل بالهجرة إلى يثرب «فلما سمعوا بمهاجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاث وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس بمكة سبعة نفر، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلاً»[1]. إذاً «فجميع من قدم عليه من أصحابه ﷺ من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون»[2].

إن هذا النص يتحدث عن عودة أول فوج من الصحابة رضوان الله عليهم وعدده وتاريخ رجوعه التقريبي، وسبب عودة ذلك الفوج، أما سبب دعوتهم فقد نتج عن سماعهم هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة بعد أن أذن الله بذلك.

مما يؤكد وقوع العودة تلك بعد أن شاع خبر الهجرة إلى المدينة، ويفهم من النص أن جميع المهاجرين إلى الحبشة بقوا فيها حتى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية الشريفة، وعلى هذا بقوا في ديار الحبشة بدون أن يغادر منهم أحدٌ أو يعود إلى الجزيرة العربية ثماني سنوات مما أعطى الدعوة الإسلامية في تلك الفترة فرصة مهمة في تلك الديار، لأن وجود عدد من السابقين الأولين تجاوز على مائة شخص في منطقة يسود فيها الأمن والأمان وبتأييد من ملكها لن يكون بدون أثر في نفوس ذلك المجتمع مهما تكن الظروف.

بالإضافة إلى ذلك فإن النص أوضح لنا بجلاء أن الذين عادوا في الفترة المذكورة مروا على مكة ونزلوا فيها حتى تعرضوا للتعذيب، والسجن،

---

(١) ابن سيد الناس، عيون الأثر، المجلد الأول، ص ١٤٩، ط. الأولى عام ١٩٧٧ م، دار الآفاق الجديدة، بيروت،

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، الجزء الثاني، ص ٢١.
راجع صفة الصفوة لابن الجوزي، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٥٨، ط. الأولى عام ١٤٠٩ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
والمصباح المضيء في كتاب النبي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي للشيخ الإمام أبي عبدالله محمد بن علي الأنصاري، ص ٢١١، ط. الأولى.

بل مات بعضهم فيها كما رأيت، ومع ذلك لا ندري هل جميع الذين عادوا ضمن الفوج الأول مروا على مكة أو الذين مروا عليها هم بعض من هؤلاء فقط دون غيرهم. وعلى كل ليس هنا ما يمنع أن مر جميعهم على مكة المكرمة قاصدين إلى المدينة المنورة.

ومن ناحية أخرى لم تعطنا كتب السير تاريخاً محدداً لرجوع الفوج الأول ولكنها تذكر بصفة عامة أن عودتهم بعد الهجرة والغالب في الظن أن ذلك الرجوع كان في السنة الأولى من بداية الهجرة إلى المدينة المنورة. والأمر الذي يدل على ذلك اشتراك معظم هؤلاء في غزوة بدر الكبرى، ومن المعلوم أن غزوة بدر الكبرى وقعت في شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، فلم يتخلف أحد ممن عادوا من الحبشة عن هذه الغزوة، إلا من سجن أو مات في مكة المكرمة، فإذا وضعنا في الحسبان الرحلات البحرية الشاقة في ذلك الزمان وعدم انتظام تلك الرحلات ومكثهم في مكة المكرمة فترة من الزمان تحتاج منهم الاستعدادات اللازمة لرحلتهم إلى المدينة المنورة على الأقل والمدة التي يستغرق السفر من مكة إلى المدينة كل هذا يدل على أن هذا الفوج رجع من الحبشة في السنة الأولى للهجرة النبوية تقريباً لأن غزوة بدر الكبرى وقعت بعد ستة عشر شهراً من الهجرة النبوية وليست تلك المدة طويلة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما أشرنا إليه سابقاً. ففي حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ الذي تقدم وردت هذه الجمل: «قالت: فكنا عنده ـ النجاشي ـ في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة» هذا الحديث القوي السند أعطانا تحديد أدق لتاريخ عودة الفوج الأول، وهو بعد إذن رسول الله لأصحابه الهجرة إلى المدينة وقبل هجرته عليه السلام إلى المدينة[1].

عودة الفوج الأخير من الحبشة:

ظلت طائفة من المهاجرين في أرض الحبشة حتى جاء لهم أمر

(١) راجع الفتح الرباني، ترتيب مسند الإمام أحمد ٢٠/٢٢٦ ـ ٢٢٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع. مجمع الزوائد ٦/٢٣ ـ ٢٧.

الرسول ﷺ بالعودة والهجرة إلى المدينة المنورة، وقد تأخرت عودتهم بالمقارنة مع الفوج الأول «فلما كانت سنة سبع من الهجرة كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام، فأسلم وكتب إليه أن يزوجه بأم حبيبة، وأن يبعث إليه من بقي من أصحابه ففعل، فقدموا المدينة فوجدوا رسول الله ﷺ قد فتح خيبر»[1].

وفي هذه المناسبة قدم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في جماعة من أرض الحبشة أثر فتح خيبر، فقال رسول الله ﷺ: «والله ما أدري أبقدوم جعفر أنا أسر وأفرح أم بفتح خيبر»[2].

وعن الشعبي قال: لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر تلقاه جعفر، فالتزمه رسول الله ﷺ، وقبل بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهما أنا فرح بقدوم جعفر أم بفتح خيبر»[3].

فمن النصوص التي وردت في شأن جعفر ومن معه من المهاجرين أصبح واضحاً أن تاريخ عودة آخر من بقي متفق عليه وتكاد كتب السير تتفق في عباراتها حول الموضوع، فالسنة السابعة الهجرية هي طوت صفحة ذهبية، واشتهرت بعودة مهاجرة الحبشة وكتب المؤرخون أحداث السنة السابعة وعندها يأتي قدوم جعفر وإخوانه بعد فتح خيبر مباشرة من حيث الأهمية.

أما سبب عودتهم إلى الجزيرة فواضح أيضاً من خلال تلك النصوص السابقة، إنهم استجابوا لله وللرسول، حيث كتب الرسول ﷺ كتاباً إلى ملك الحبشة يطلب فيه مساعدة أصحابه وتجهيزهم حتى يتمكنوا من الهجرة إلى المدينة المنورة.

أما عدد الذين كانوا مع جعفر في هذه الرحلة الميمونة فهو قريب جداً

---

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٥٨، ط. الأولى عام ١٤٠٩ هـ، دار المكتبة العلمية، القاهرة.

(٢) ابن عبدالبر، الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٢٠٦، ط. الثانية عام ١٤٠٣ هـ، دار المعارف، القاهرة.

(٣) الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، المجلد الأول، ص ٢١٣.

من الفـوج الأول إلى حـد كبـير «فجميـع من قـدم في السفينتـين إلى رسول الله ﷺ ستة عشر رجلاً»[1].

ويبدو أن هذا العدد الذي ذكره ابن هشام آنفاً هو عدد الرجال، أما الأطفال والنساء فليسوا بداخلين في هذا العدد المذكور.

أما العدد الإجمالي فقد ذكره ابن هشام في نص آخر بلغ العدد الإجمالي فيه بضعاً وعشرين شخصاً ولا يوجد اختلاف كبير بين أهل السير في العدد الكلي، فقد ذكر ابن هشام أربعاً وعشرين رجلاً وطفلاً وامرأة، إذا استثنينا الأشعريين الذين قدموا معهم في السفينتين ويفهم من سرد القصة أن ابن هشام لم يذكر النساء اللواتي هلك أزواجهم ضمن العدد، ولكنه يشير إلى ذلك في بعض عباراته، فيقول على سبيل المثال: «ومن بني الحارث بن فهر بن مالك: الحارث بن قيس بن لقيط رجل وقد كان حمل معهم في السفينتين نساء من نساء من هلك هناك من المسلمين»[2].

أما ابن حزم فقد ذكر «بأن العائدين من الحبشة في السفينتين هم اثنان وعشرون شخصاً»[3].

ومن الأمور المعلومة بداهة أن العدد الذي ذكرناه لا يشمل الأشعريين الذين هاجروا من اليمن إلى الحبشة ومنها إلى المدينـة المنورة مـع جعفر في السفينتين، وقد تكلمنا موضوع الأشعريين في أبحاث سابقة من هذا الكتاب، ويمكن الرجوع إليها عن طريق كتب التراجم عند الحـديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وأرضاه أو الحديث عن قدوم جعفر إلى المدينة عام فتح خيبر.

ومعنى هذا أن العدد المذكور يخص بالصحابة الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة ثم بقوا فيها فترة معينة حتى جاء إليهم أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الثالث، ص ٣٠٩.
(٢) المصدر السابق، المجلد الثالث، ص ٣٠٩.
(٣) جوامع السير لابن حزم، ص ٢١٨.

أما الأشعريون فقصتهم مستقلة مشهورة ويتناول المؤرخون وأهل السير عادة باستقلالية عن بقية المهاجرين، لعل السبب في هذا الأمر هو أنهم لم يهاجروا إلى الحبشة برغبتهم وإنما كانت وجهتهم إلى المدينة المنورة ثم ألقت أمواج البحر العاتية سفينتهم إلى الشاطىء الغربي للبحر الأحمر «بلاد الحبشة» فعاشوا مع المهاجرين هناك بطلب من قائدهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وبهذا يعدون من أصحاب الهجرتين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة.

وبمراجعة سريعة ومقارنة متواضعة بين عدد المهاجرين من مكة إلى المدينة وبين الذين رجعوا منها ضمن الفوج الأول الذي رجع في الفترة الواقعة بين إذن النبي ﷺ لأصحابه الهجرة، وبين غزوة بدر، والفوج الثاني الذي عاد من الحبشة عام سبع من الهجرة يتضح بصورة لا تقبل الجدل أن العدد الإجمالي في الفوجين أقل بكثير من مجموع المهاجرين إذ لا يتجاوز عدد الفوجين في أكثر التقديرات على ستين شخصاً بينما المهاجرون من مكة إلى الحبشة أكثر من مائة، ونسبة الوفيات قريبة بنسبة المواليد، وعلى هذا فإن العدد الذي تذكره كتب السير لا يعبر عن إحصائية دقيقة، وإنما هو ذكر أشهر وأكثر جمع رجع من الحبشة، ولا شك أن ما أشرت إليه هو أشهرها. من حيث العدد في كل مرة ومن حيث الزمن وتوقيته، لأن المرة الأولى كانت أول هجرة من الحبشة إلى المدينة المنورة بعد المعاناة التي سببت الهجرة وهو حدث له أهمية قصوى في نفوس العصبة المؤمنة، والمرة الثانية كانت آخر هجرة من الحبشة إلى المدينة وفيها التأم الشمل وسعد المهاجرون الذين بقوا أطول فترة في بلاد الحبشة بلقيا رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أثناء فتح عظيم ونصر مؤزر ضد اليهود وطغيانهم، وهو موقف حري بأن يذكر دائماً وأبداً بماله من قيمة عظيمة.

وانطلاقاً مما سبق ذكره يحق لنا جميعاً أن نتساءل، متى عاد غير من ذكروا من بلاد الحبشة إلى أرض الجزيرة؟ لأن الذين ذكروا حتى الآن ليسوا كل الذين هاجروا إلى الحبشة.

ومن هنا يمكن القول بدون تردد أو تلكؤ أن رجوع الصحابة رضي الله عنهم من الحبشة كان أكثر من فترتين اثنتين، ومما يؤيد هذا الأمر ما أورده ابن عبدالبر بمناسبة قدوم السفينتين اللتين حملتا آخر من بقي في الحبشة قائلاً: «وقد أتى من مهاجرة الحبشة قبل ذلك بسنتين سائرهم، وكان هؤلاء آخر من بقي بها منهم»[1].

وقد أورد ابن حزم ما يؤيد ذلك النص بقوله: «وكان أتى سائر مهاجرة الحبشة قبل ذلك بسنتين وكان هؤلاء المذكورون آخر من بقي بها»[2]. ويتضح من هذا النص أن طائفة من المهاجرين رجعوا من الحبشة قبل قدوم جعفر وأصحابه بسنتين، ولكن الشيء الذي لم يتأكد من خلال هذه النصوص هو عدد الفترات التي تم فيها رجوع الصحابة الآخرين الذين يشير إليهم ابن حزم وغيره، فهل عادوا إلى الجزيرة دفعة واحدة وهذا أمر مستبعد أو بدفعات صغيرة؟ وعلى كل حال فإن من لم يمت في الحبشة ولم يرد اسمه في الفوجين المشهورين لا بد وأن قدم من الحبشة خلال السنوات الواقعة بين غزوة بدر، وغزوة خيبر، وبصورة أدق من السنة الثانية للهجرة وحتى السنة الخامسة وهذا ما يفهم من مجموع الروايات التي أوردت أخبار الصحابة رضي الله عنهم والفترات التي استغرقت فيها عودتهم وهجرتهم إلى المدينة المنورة، وباختصار استغرقت عملية اكتمال عودة المهاجرين من الحبشة إلى الجزيرة العربية سبع سنوات كاملة، لأن العملية بدأت بسماع هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وامتدت حتى السنة السابعة عام فتح خيبر.

أسباب عودة مهاجرة الحبشة:

والجدير بالمرء أن يسأل نفسه، ما هي الأسباب التي أدت إلى عودة الصحابة من الحبشة إلى المدينة المنورة؟ مع العلم أننا نعلم أن الإسلام رسالة عالمية لا يختص ببلد دون آخر، ولا شعب دون غيره، ودين شامل في تعاليمه

---

(١) ابن عبدالبر، الدرر في اختصار المغازي والسير، ص ٢٠٦، ط. الثانية.

(٢) ابن حزم، جوامع السير، ص ٢١٨، تحقيق إحسان عباس، د. ناصرالدين، دار المعارف، القاهرة.

لأنه خاتم الأديان كما أن الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والرسل عليهم السلام، بالإضافة إلى ذلك أن المهاجرين إلى الحبشة وجدوا فرصة نشر الإسلام في تلك البلاد بسبب توفر الأمن والراحة النفسية والتفاهم التام بينهم وبين المسئولين في الحبشة وعلى رأسهم ملك الحبشة وأنصاره، فلم تكن هناك أدنى مضايقة توجه إليهم أو الشعور بالخوف والجوع وما شابه ذلك.

وما دام هذا هو الجو العام الذي كانوا يعيشون فيه، وما دام هذا ملك الحبشة الذي عاشوا في أكنافه حيث شملهم بعطفه وحماهم بقوته، وما دام الإسلام دين عالمي لكافة البشر، لماذا إذاً فارق المهاجرون أرض الحبشة وهاجروا إلى المدينة المنورة؟!!

أولاً: خروج الصحابة وهجرتهم إلى الحبشة كان ضرورة:

إن خروج الصحابة رضي الله عنهم وهجرتهم إلى الحبشة كان فراراً بدينهم بحثاً عن الحرية ـ حرية العبادة ـ بمفهومها الشامل الواسع والتي هي الوظيفة الأساسية التي خلق الإنسان من أجلها. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1].

إن هجرتهم كانت بحثاً عن نسيم الحرية التي تمكنهم من إظهار دينهم، وأداء شعائر العبادة دون خوف من أحد من بني البشر، وتلك النعمة الكبرى كانت منعدمة في جنبات مكة، وضواحيها بل كل من تظهر منه علائم الإيمان أو أعلن إسلامه مجاهراً به كان يتعرض لأعنف صنوف العذاب بما في ذلك إزهاق أرواحهم، أما السجن والتجويع والضرب المبرح فحدث عنه ولا حرج، وقد سبقت الإشارة والتعرض لمثل هذا الموضوع في المباحث السابقة.

وانطلاقاً من تلك الحاجة الملحة واستشعاراً بالمسئولية العظمى المشبعة بالرأفة والرحمة النبوية تجاه الأمة أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى أرض

---

(١) سورة الذاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨.

الحبشة، فقال رسول الله ﷺ: «الحقوا بأرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، فأقيموا ببلاده حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه»[1].

فبعد أن أذن الله رسوله بالهجرة من مكة إلى دار الهجرة «يثرب» واستقروا فيها وطابت مقاماً فأصبحت مدينة يثرب القرية المعزولة في ركن من أركان الجزيرة عاصمة الإسلام، ومأوى المؤمنين. حيث الأنصار والمهاجرون تآخوا في الله وكونوا المجتمع الإسلامي بقيادة الرسول ﷺ، فبعد حدوث كل تلكم التطورات والأحداث المتلاحقة زالت العلة واختفى السبب الأساسي الموجب للهجرة الأولى حيث لا خوف عليهم في المدينة المنورة، لأنها عاصمة الإسلام ودار السلام خالصة للدولة الإسلامية بدون أن يشارك في حكمها أهل ملة أخرى يهود أو مشركون فبموجب ما تقدم أقول: لم تكن الهجرة إلى الحبشة هجرة قصد منها الاستقرار النهائي في ذلك البلد لأي حال من الأحوال، فما دام الهدف من الهجرة لم يكن الاستيطان والاستقرار، بل بسبب ظروف قاهرة أملتها مواقف المشركين وتصرفات الجاهلين في بداية الدعوة الإسلامية، وما دامت الأوضاع قد تغيرت وتبدلت إلى حد كبير، ووضعت حداً لمآسي المؤمنين في مكة بهجرة الصحابة رضي الله عنهم إلى المدينة تلك الهجرة التي توجت بهجرة الرسول ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فإن عودة من هاجر إلى الحبشة إلى الجزيرة ولحوقهم ركب رسول الله ﷺ في المدينة المنورة أمر طبيعي لا غبار عليه، لذا رأينا كيف عاد البعض رضي الله عنهم بعد انفراج الغمة وبعد سماعهم هجرة حبيبهم ﷺ مباشرة بدون انتظار طويل لأن الله جعل لهم مخرجاً مما كانوا فيه ولا شك أن كلمة الرسول ﷺ كانت ترن في آذانهم «حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه».

ثانياً: وجوب الهجرة إلى المدينة المنورة:

كان تجميع المسلمين وتكوين قوة ذاتية هدفاً من أهداف الإسلام في تلك المرحلة الحرجة. بل كان ذلك ضرورة لا مناص منها.

إن الإسلام لم يأت لإشاعة رغبة روحية فقط والسعي إلى تلبية

---

(١) الحافظ الذهبي، تاريخ الإسلام «السيرة النبوية»، ص ١٨٤.

متطلباتها، فإذا تمكن من تحقيقها لا يتطلع إلى شيء آخر، بل جاء ليغطي جوانب الحياة الإنسانية المادية منها والمعنوية حتى لا يطغى جانب على جانب لتقسيم حياتنا، لكي نتمكن من تأدية الواجبات المنوطة بنا، ولكي نعطي كل ذي حق حقه، وتحقيق هذا الأمر ليس هيناً سهلاً في دنيا الواقع، وإنما ذلك أمر في غاية التعقيد والصعوبة. فأفراد المجتمع لبنات وأدوات في البناء الإسلامي، فإذا لم يحدث تعاون وتكاتف بين مجموعات من أفراد المجتمع لا يمكن إنجاز أي مشروع فعّال، فإذا غابت القيادة المنظمة، ومركز لتلك القيادة فإن ما يراد بناؤه بعيد المنال ومستبعد التحقيق إن لم يكن مستحيلاً في معظم الأحيان.

وكذلك إذا لم نجد العناصر الأساسية للمجتمع والدولة، وعلى رأسها القيادة، وأفراد من المؤمنين، والقاعدة التي ينطلقون منها في مبدأ الأمر فإنه يستحيل أن يتحقق الهدف لهذا الدين، لأن الجهود المبعثرة التي لا تنتظم تحت قيادة حكيمة وواعية ومركز تجميع يكون مأوى للقائد وأفراد الشعب على حد سواء. بدون ذلك لا تثمر الجهود المبعثرة والمشتتة ثمار غناء، وإنما تظل جهوداً فردية عاجزة عن بلوغ الهدف المنشود.

ومن هنا أوجب الله تعالى الهجرة إلى المدينة على كل مسلم قادر لتجميع الطاقة الإيمانية، وإيجاد قوة مسلمة تجاهد في سبيل الله، وتدعو الناس إلى ربها، تدافع عن الإسلام وتحمي بيضته، وترهب أعداء الله ورسوله الظاهرين والمستترين، وتتلقى التربية العملية والعلم والعمل لهذا الدين من رسول الله ﷺ، لكي تؤدي رسالتها بكفاءة عالية بصحبة رسول الله ﷺ، ثم تتولى حمل الأمانة بعده وتبلغ البشرية ما أنزل على رسول الله ﷺ.

ولحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى أوجب الهجرة المباركة على المسلمين قاطبة ليبضووا تحت لواء رسول الله ﷺ فلم يقبل العذر إلا من المستضعفين الذين لا يملكون من وسائل القوة التي تمكنهم من الانتقال من دار الكفر إلى دار الإسلام.

يقول الله عز وجل في هذا الشأن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ

أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[1].

كان هذا التجمع أمراً ضرورياً لإبراز المجتمع الإسلامي المنفصل عن المجتمع الجاهلي، فالذين دخلوا في الإسلام ولم ينضموا إلى مجتمع المدينة لا يستطيعون الاشتراك والمساهمة في بناء الأمة الجديدة بقيادة الرسول ﷺ، ومن هنا لم يستحقوا الحصول على الموالات الكاملة من قبل المؤمنين، أو الجنسية الكاملة في التعبير العصري، لأنهم لم يوفوا شروط تلك الجنسية وإن كانوا مسلمين وأصبحت الهجرة إلى المدينة المنورة في تلك المرحلة من تاريخ الأمة الإسلامية هي: الفيصل في الولاية والنصرة ولهذا تشكل المجتمع الإسلامي من المهاجرين والأنصار «المهاجرون والأنصار أمة من دون الناس». ونلاحظ أن بقية المسلمين الذين لم يهاجروا حتى ذلك الوقت لم يحوزوا ذلك الشرف الرفيع. ولقد حدد القرآن الكريم الفرق بين الأمة الإسلامية التي تكونت في المدينة بعد الهجرة وبين الذين لم يهاجروا إليها مع قدرتهم على ذلك. يقول الله عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2]. ولقد تحددت معالم المجتمع الإسلامي بعد الهجرة مباشرة يقول

---

(١) سورة النساء: الآيات ٩٧ ـ ٩٩.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس»[1]. ولهذا كان على الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن يهاجروا إلى المدينة المنورة ليصبحوا سنداً وعوناً قوياً لرسول الله ﷺ والمجتمع الإسلامي لأنهم داخلون في الحكم العام الذي يوجب الهجرة على المسلمين في ذلك الوقت أينما وجدوا إذا أمكن لهم ذلك، وكان هذا سبباً آخر لعودتهم وهجرتهم إلى المدينة المنورة منذ سماع أخبارها وأخبار قاطنيها حتى توالت رحلاتهم. وتتابعت أفواجهم، ولو لم يكن سبب آخر غير هذا لعودتهم لكفى. . . . والله أعلم.

ثالثاً: أمر رسول الله ﷺ:

في السنة السابعة للهجرة بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى الحبشة وبعث معه كتابين إلى النجاشي يأمره بإرسال أصحابه وتجهيزهم في أحد الكتابين كما سبق ذكره، إذاً كان رجوعهم بأمر رسول الله ﷺ.

رابعاً: حب رسول الله ﷺ:

إن فراق أصحاب رسول الله حبيبهم ﷺ لمن أصعب الأمور، ولولا المشقة ما حدث ذلك أبداً، وما دامت الأسباب التي ألجأتهم إلى الهجرة والمفارقة قد اختفت وزالت فالرجوع أمر حتمي، لأن كل واحد منهم كان يتمنى من صميم قلبه لقاء رسول الله ﷺ، فحب أصحاب رسول الله ﷺ يفوق كل التصورات، فكم كان شوقهم كبيراً وقد رأينا كيف إن آخر من قدم من الحبشة كانوا يرددون هذه العبارة «غداً نلتقي محمداً وصحبه».

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، المجلد ٢/١٤٣.
انظر البداية والنهاية لابن كثير ٣/١٤٣.
وانظر مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميدالله ١/٧، طبعة القاهرة ١٩٤٢ م.

خامساً: الغربة والبعد عن الأهل والأحباب:

مما لا شك فيه أن مفارقة الأهل والأحباب والديار التي عاش المرء في ساحاتها وتربي صعب على النفوس، وهذا أمر فطري لا غرابة فيه وقد قيل مفارقة المألوف مشقة.

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

إن الغريب له مخافة سارق وخضوع مديون وذلة موثق
فإذا تذكر أهله وبلاده ففؤاده كجناح طير خافق

كما قال الشاعر:

ما من غريب وإن أبدى تجلده إلا تذكر عند الغربة الوطنا

لا يشك أحد في أهمية بقاء المهاجرين في بلاد الحبشة فترة طويلة لدعوة الناس إلى الإسلام، وتربيتهم وإرشادهم، ولكن تلك الأهمية تتضاءل أمام الهجرة إلى المدينة المنورة والقصد من ذلك، فبعد الصراع العنيف والمواجهات بين العصبة المؤمنة والمشركين في الجزيرة، وذيول ذلك الصراع في بلاد الحبشة اتجه المسلمون إلى المدينة لتأسيس دولتهم وتكوين أمتهم كقاعدة ينبعث منها نور الإيمان وتشع منها أشعة الحق المبين إلى كل الاتجاهات والقارات المختلفة، وهذا يتطلب إلى جهد جهيد وتوفير الطاقات الممكنة وحشد كل القدرات المادية والمعنوية لمواجهة قوى الشرك والطغيان.

فلو ترك المسلمون وشأنهم ليعيش كل واحد في المكان الذي يهواه ويختاره لنفسه بدون توجيه معين لما تمكن رسول الله ﷺ من تأسيس دولة الإسلام وبناء القوة الإسلامية الرادعة الجاهزة للاستعمال عند الضرورة لحماية الدعوة وأفرادها. وإقناع الطغاة في الأرض بأن الإسلام ليس ضعيفاً يتلقى الضربات من أعدائه بدون رد مناسب.

فعودة المهاجرين إلى الجزيرة وهم السابقون الأولون الذين آمنوا قبل غيرهم أمر لا بد منه في هذه المرحلة، فعندما ينجح المسلمون في المدينة المنورة، ويقيمون نموذجاً إسلامياً فريداً في نوعه على أرض الواقع فمن السهولة بمكان أن تنتقل التجربة العملية إلى المناطق الأخرى، وهذا ما حدث

بالفعل حتى أصبح كل مسلم يضع أمامه ذلك النموذج العجيب منذ ذلك الزمان وإلى يوم الدين، ولله في تشريعاته حكم لا تحصى ولا تعد. فكم من فوائد جنيناها من الهجرة، ولله الحمد والمنّة.

عدد الذين ولدوا في الحبشة أثناء الهجرة:

لم يكن المهاجرون رجالاً خلصاً، وإنما كان من بينهم عدد كبير من الزوجات وعلى رأسهن رقية بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها والتي كانت تحت سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، وعميرة بنت السعدي زوجة مالك بن زمعة. وليلى بنت أبي حتمة زوجة عامر بن ربيعة، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو زوجة أبو سبرة بن أبي رهم وغير ذلك من العائلات والأسر الفاضلة.

وقد سبق ذكر عدد النساء اللواتي هاجرن إلى الحبشة[1]. ولهذا ولد عدد من الأطفال يشمل الذكور والإناث في أرض الحبشة خلال السنوات التي أمضى الصحابة فيها، فهذه أسماء من تيسر الوقوف عليهم، ولا أدعي بأنني وقفت على جميع الذين ولدوا في الحبشة.

١ ــ محمد بن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهما.
٢ ــ عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهما.
٣ ــ عون بن جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهما.
٤ ــ محمد بن أبي حذيفة بن عتبة، رضي الله عنهما.
٥ ــ عبدالله[2] بن أصمحة بن النجاشي، رضي الله عنهما.
٦ ــ عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، رضي الله عنهما.
٧ ــ زينب بنت أبي سلمة، رضي الله عنهما.
٨ ــ عبدالله بن عثمان بن عفان، رضي الله عنهما.
٩ ــ عبدالله بن المطلب، رضي الله عنهما.

---

(١) راجع المبحث «عدد المهاجرين في الهجرة الثانية».
(٢) لقد أرضعته أسماء بنت عميس زوجة جعفر مع أولادها «ذكر هذا الخبر الإصابة».

١٠ ــ حبيبة بنت عبيدالله «فيها خلاف»، رضي الله عنهما.
١١ ــ سليط بن سليط بن عمرو، رضي الله عنهما.
١٢ ــ سعيد بن خالد بن سعيد، رضي الله عنهما.
١٣ ــ أمة بنت خالد بن سعيد، رضي الله عنهما.
١٤ ــ محمد بن أبي سبرة بن أبي رهم، رضي الله عنهما.
١٥ ــ عبدالله بن أبي سبرة بن أبي رهم، رضي الله عنهما.
١٦ ــ عمر بن أبي سلمة بن عبدالأسد القرشي، رضي الله عنهما.
١٧ ــ موسى بن الحارث بن خالد، رضي الله عنهما.
١٨ ــ عائشة بنت الحارث بن خالد، رضي الله عنهما.
١٩ ــ زينب بنت الحارث بن خالد، رضي الله عنهما.
٢٠ ــ فاطمة بنت الحارث بن خالد، رضي الله عنهما.
٢١ ــ الحرب بن سفيان بن معمر بن حبيب، رضي الله عنهما.
٢٢ ــ الحرث بن حاطب بن الحرث بن معمر، رضي الله عنهما.
٢٣ ــ محمد بن حاطب بن الحرب، رضي الله عنهما.
٢٤ ــ محمد بن حطاب بن الحرث، رضي الله عنهما.

إن هؤلاء الذين ولدوا في ديار الحبشة وردت تراجمهم في الكتب التي تناولت تراجم الصحابة رضي الله عنهم، ومن تلك الكتب التي وضعت تراجم مفصلة أو مجملة للذين ولدوا هناك:

١ ــ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني.
٢ ــ الاستيعاب، لابن عبدالبر.
٣ ــ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير.
٤ ــ الطبقات الكبرى، لابن سعد.

لقد أوردت هذه الكتب بضعاً وعشرين إسماً، وترجمت لهؤلاء جميعاً. فمنهم من اشتهر في حياته بعد ذلك، ومنهم من مات صغيراً في الحبشة، ومنهم من لم يعقب ولداً.

وأياً كانت الظروف التي أدت إلى الهجرة وهي معروفة، وما ترتب على

ذلك من إقامة طويلة امتدت إلى خمس عشرة سنة لبعض العائلات على أقل تقدير، فإننا نتصور أن هذا العدد الكبير من الأطفال يعني شيئاً كبيراً، وقيمة حقيقية لإرساء قواعد الإسلام في ربوع الحبشة.

بل يعني ذلك أن الحبشة منذ ذلك التاريخ أصبحت متصلة بالجزيرة العربية مهد الإسلام. وما انقطع الجسر الذي بناه المهاجرون حتى يومنا هذا رغم الظروف والتغيرات التي مرت على الحبشة لأنها مسقط رأس أعداد من الصحابة والتابعين حتى ارتبط تاريخ الحبشة بتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، مما جعلها أشهر بلد وأوسعه ذكراً في كتب تراجم الصحابة، فلا غرابة من هذا الأمر لأن المهاجرين كانوا يمثلون ثلثي المسلمين يومها حيث لم يبق في جنبات مكة وشعابها إلا أربعون رجلاً تقريباً بينما المهاجرون إلى الحبشة أكثر من مائة صحابي وصحابية وفي تربتها ولد بضع وعشرون طفلاً، ومات فيها عدد من المهاجرين أو الذين ولدوا فيها.

كل هذا يحدث ترابطاً اجتماعياً قوياً بين المهاجرين ومجتمع الحبشة فعلى سبيل المثال: ولد النجاشي ابناً فسماه عبدالله، وهذه التسمية تدل دلالة واضحة على الأثر الواضح الذي أحدثه المهاجرون في العائلة الملكية وفي شخص النجاشي على الأخص ولم يكتف النجاشي باختيار هذا الاسم لولده، ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك حين سلم ابنه إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فأرضعته زوجته أسماء بنت عميس رضي الله عنها، فصارت أماً لابن النجاشي حتى فطم مع ابنها عبدالله بن جعفر رضي الله عنهم أجمعين، إن تلك التصرفات تعكس على العلاقات بين المهاجرين والمجتمع الحبشي، لأن تلك التصرفات والأفعال التي تصدر من الملك تزيد العلاقة الأصلية رسوخاً وقوة، ولأن تلك المواقف تفسر جانباً من العلاقات الاجتماعية الممتازة التي تحققت حتى زالت الحواجز بين الأسر وأصبح التعامل بلا فواصل أو قيود تحد من تلك العلاقات.

ومن هؤلاء الذين ولدوا في الحبشة وبقوا فيها حتى عقلوا: الصحابية الجليلة أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص وكنيتها «أم خالد». قالت أم خالد: سمعت النجاشي يقول: لأصحاب السفينتين اقرأوا رسول الله مني

السلام، قالت أمه بنت خالد: فكنت فيمن أقرأه السلام من النجاشي»[1].

ومنهم عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهو أول مولود ولد في الإسلام بأرض الحبشة وقدم مع أبيه المدينة المنورة. روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عن أمه أسماء وعمه علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، روى عنه بنوه، إسماعيل وإسحاق ومعاوية، وعروة بن الزبير، وتوفي رسول الله ﷺ ولعبدالله عشر سنين، وهو الذي روى لنا قول النبي ﷺ: «اصنعوا لأهل جعفر طعاماً فإنهم قد جاءهم ما يشغلهم»، وتوفي سنة ثمانين عام الجحاف بالمدينة المنورة»[2].

عدد الذين ماتوا في الحبشة من المهاجرين وأطفالهم:

نقلاً من المصادر المعتمدة يبلغ عدد الذين توفوا في الحبشة من المهاجرين وأطفالهم، رجالاً ونساءً باختلاف أعمارهم. ستة عشر شخصاً تقريباً. ومن بين هؤلاء عدد من الأطفال ولدوا في أرض الحبشة، فهذه أسماء من توفوا في أرض الحبشة:

١ ــ المطلب بن أزهر بن عبد عوف الزهري.
٢ ــ عبدالله بن المطلب بن أزهر.
٣ ــ ريطة بنت الحارث[3].
٤ ــ زينب بنت الحارث بن خالد.
٥ ــ موسى بن الحارث بن خالد.
٦ ــ عائشة بنت الحارث بن خالد.
٧ ــ فاطمة بنت صفعان بن أمية.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، المجلد الرابع، الجزء الثامن، ص ١٦.
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن كثير، المجلد الثالث، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.
(٣) أولاد الحارث بن خالد ولدوا في الحبشة وهلكوا بعد خروجهم من أرض الحبشة يريدون المدينة فوردوا على ماء من مياه الطريق فشربوا منه فلم يبرحوا حتى توفيت ريطة «الأم» وولدها غير فاطمة بنت الحارث بن خالد، راجع الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الرابع، ص ١٢٨.

٨ ــ خطاب بن الحارث بن معمر.
٩ ــ السكران بن عمرو بن عبد الشمس.
١٠ ــ عمرو بن أمية بن الحرث بن أسد.
١١ ــ حاطب بن الحرث.
١٢ ــ عبدالله بن الحرث.
١٣ ــ عروة بن عبدالعزى بن حرثان.
١٤ ــ عدي بن نضلة.
١٥ ــ طليب بن أزهر.
١٦ ــ أم حرملة بنت عبد الأسد.

رحم الله من مات من المسلمين في أرض الحبشة، وأسكنهم الفردوس الأعلى، إنه رؤوف رحيم.

ليس هدفي من هذا المبحث المتواضع أن أكتب عن كل واحد من السادة النجباء والسيدات الفاضلات ترجمة تفصل حياتهم، فإن مثل هذه الترجمة متوافرة في الكتب التي سبق ذكرها أو غيرها وما أكثرها في المكتبة الإسلامية للاطلاع على جهادهم ودعوتهم في الجزيرة العربية وفي الحبشة.

وإنما الذي يهمني هنا في المقام الأول هو الربط بين القضايا المتناثرة في صفحات كتب السير والمغازي والتاريخ والأدب، وفي الحديث وتفسير القرآن الكريم وغير ذلك ووضع الجزئيات بجانب بعضها البعض ثم ربطها بالكليات في موضوعها. ومحاولة إعطاء تفسير مناسب للحوادث المتعلقة بالهجرة والمهاجرين.

وعندما أتحدث عن المهاجرين الذين توفاهم الله في الحبشة ليس القصد مجرد ذكر وكفى وإنما الهدف الأساسي هو إبراز أهمية الموضوع من الناحية الدعوية والاجتماعية واللغوية، ومن حيث السلوك والآداب العامة.

فالمهاجرون أصحاب قضية، فارقوا ديارهم من أجلها، وتصدوا لتحديات المشركين في مكة وفي الحبشة بإيمان راسخ، فدافعوا عن عقيدتهم، وقضيتهم العادلة بكل ثقة وشجاعة.

إذاً ليس من المعقول أن يعيش هؤلاء عيشة غير دعوية مهما تكن الظاروف، والأدلة كلها تؤكد أنهم خالطوا المجتمع، وعرضوا عليه دعوتهم بالأسلوب المناسب لمثل ذلك المجتمع.

إنه من الواضح أنهم حققوا نجاحاً كبيراً في مثل هذا المجال، وكأنهم أسسوا مجتمعاً إسلامياً في الحبشة كانوا لبنات في بنائه.

فالذين ولدوا هناك جزء من التركيبة الاجتماعية، تعلموا شيئاً من لغته، وتأثروا بعاداته التي لا تخالف الإسلام وتقاليده ونقلوا بعضها إلى المدينة المنورة كما فعل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام رسول الله ﷺ «حجل جعفر أمام رسول الله ﷺ» فعندما سئل أجاب: رأيت الحبشة يفعلون ذلك.

فالذين ماتوا ظلت قبورهم تذكر الأجيال المتعاقبة قصة الهجرة وبداية انتشار الإسلام ودخوله في هذه البلاد، بل تجدد قضية الإسلام في نفوس المسلمين الذين عاشوا في الساحل الغربي للبحر الأحمر أو ما يعرف اليوم بالقرن الإفريقي، فذكرى هؤلاء متصل حلقاته لا تنقطع، ومن هنا ظل المسلمون يتحدثون عن أرض الحبشة التي أحبوها من قلوبهم بسبب ذلك الموقف القديم الذي يتجدد مع كل جيل من المسلمين. وتتناقل الألسنة عن طريق الروايات التاريخية ويجب أن نتذكر دائماً أن موت الصحابة رضي الله عنهم في الحبشة قبل أربعة عشر قرناً يرمز إلى أسبقية الدعوة في تلك الديار، وهذا شرف عظيم حاز به أهلها قبل معظم الأقطار والشعوب.

ولا شك أن هذا التاريخ ذكريات عطرة تحيي النفوس النائمة وتجدد عطاءها وتزرع فيها العزة والثقة، وللمسلمين في القرن الإفريقين اليوم أن يفتخروا بتلك الهجرة لأنها بداية حياتهم الإسلامية، ونقطة تحول في تاريخ المنطقة، فرضي الله عن الصحابة الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل رفعة هذا الدين، ورحم الله الذين اهتدوا بهديهم وحملوا الراية بعدهم وتحملوا المسئولية العظيمة ودافعوا عن الإسلام رغم كيد الكائدينم وتكالب الأعداء عليهم.

وأخيراً التأم الشمل:

لقد عاد ركب الإيمان إلى مهد الإسلام بعد معاناة شديدة، ومحن توالت حلقاتها عليهم، خرجوا من ديارهم مكرهين غير مخيرين، وابتلوا بفراق رسول الله ﷺ بإجسامهم لا بقلوبهم وأرواحهم، وودعوا الأصحاب والإخوان والأقرباء، ولكن ذلك الوداع كان يختلف عن الوداع الطبيعي بين بني البشر في الظروف العادية، إنهم خرجوا من بيت الله الحرام بدون حرارة الوداع المصحوبة بالعواطف الجياشة المليئة بالذكريات وبدموع الأحبة عند المفارقة، بل فوق ذلك كله تعرضوا للمطاردة العنيفة والبحث عنهم بدافع الحقد والكراهية حتى انطلقت الجياد من شعاب مكة المكرمة للبحث عن هؤلاء الذين يهاجرون إلى الله فراراً بدينهم، وكأنهم مجرمو الحرب أو جناة ارتكبوا جرائم كبرى ضد البشرية ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

لقد كانت عناية الله تكلؤهم وترعاهم حيث لم يستطع العدو المتربص بهم الدوائر حصول النشوة والفرحة الغامرة لأنهم فشلوا في إلقاء القبض عليهم ولم يتمكنوا من إذلالهم وحبسهم في سجون مكة، وباءت كل المحاولات والمساعي التي بذلها المشركون بخيبة وخذلان، وانتكست راياتهم التي رفعوها لسحق العدل والحق المبين. والفضل لله سبحانه وتعالى.

وفي تلك الأجواء الساخنة بحدوث المواجهات بين الإيمان والكفر قضى أصحاب رسول الله ﷺ فترة من الوقت في انقسام، قسم هاجر إلى الحبشة وعاش هناك وواجه المحن والشدائد وانتصر على الباطل، ولكن حنينهم للقاء رسول الله ﷺ كان شديداً يعكر صفو حياتهم ويؤرقهم، ولكنهم صبروا واحتسبوا الأجر عند الله عز وجل. والقسم الآخر بقي مع رسول الله ﷺ وجاهد جهاداً كبيراً قبل وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة بل خاضوا معارك

---

(١) سورة البروج: الآيتان ٨، ٩.

مصيرية في الجزيرة ضد المشركين واليهود وانتصروا على حزب الشيطان وهزم الله أحزاب الكفر تباعاً حتى تأسست دولة الإسلام في المدينة المنورة.

فرغم مشاركة بعض مهاجرة الحبشة في الجهاد والبناء بعد الهجرة إلى المدينة المنورة مباشرة مثل اشتراكهم في غزوة بدر وما تلاها من الغزوات إلا أن قسماً كبيراً منهم لم يفارق الحبشة إلا في السنة السابعة للهجرة. وبهذا تأخر لمّ الشمل حتى قدم من تبقى بأرض الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ورضي عن إخوانه.

إنها عودة تغمرها السعادة ويملؤها السرور، وهي عودة حميدة بما تحقق للمؤمنين من انتصارات باهرات على الباطل منذ غزوة بدر التي فرقت بين الحق والباطل، كان وقع تلك الانتصارات كبيراً حتى طارت أخبارها إلى الآفاق القريبة والبعيدة ومنها الحبشة حيث المهاجرون الذين تمتعوا بسماع الانتصارات عن بعد، وتوالت النعم على المؤمنين فكانوا من نصر إلى نصر، منذ غزوة الفرقان التي قال الحق تبارك وتعالى في شأنها ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[1]. فأحد فالأحزاب وخيبر وعشرات من الغزوات والسرايا التي تكللت بالنجاح والانتصارات العظيمة.

لقد حدثت كل تلك التطورات وتغيرت موازين القوى في الجزيرة في غيبة جمع كريم من أصحاب رسول الله ﷺ لم يقدر الله سبحانه وتعالى لهم مشاركة الغزوات المباركة لأنهم كانوا يجاهدون في جبهة أخرى بعيدة عن المدينة والجزيرة العربية، فقد تحقق على أيديهم خير كثير حيث أسسوا قاعدة للإسلام ومركز إشعاع للقارة الإفريقية.

ولكن الله سبحانه وتعالى جمع العصبة المؤمنة من المهاجرين والأنصار

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٧، ٨.

والذين اتبعوهم بإحسان في المدينة المنورة التي أصبحت منذ الأيام الأولى للهجرة النبوية العاصمة، عاصمة الدولة الإسلامية، ومأوى لأفئدة المسلمين حيث ظل وجوب الهجرة إليها قائماً ثماني سنوات تقريباً.

والتأم الشمل بعد تفرق دام خمس عشرة سنة متوالية بعد فتح حصون خيبر المنيعة التي ظن اليهود أنها تمنعهم وتحميهم إلى الأبد.

وفي الوقت الذي كان المسلمون في قمة السعادة بنصر الله لهم على يهود خيبر إذا إخوانهم المهاجرون إلى الحبشة قدموا المدينة المنورة فكان قدومهم فتحاً جديداً من نوع آخر، أنظر كيف كانت فرحة رسول الله ﷺ حين قال: «والله ما أدري أبقدوم جعفر أنا أسر وأفرح أم بفتح خيبر»[1].

بل تجاوز المصطفى عليه الصلاة والسلام هذا الحد وعبر عن سعادته الغامرة، وأبدى فرحته وابتهاجه بالفعل مع القول. عن ابن عباس رضي الله عنه «لما قدم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من أرض الحبشة اعتنقه النبي ﷺ، وقبل بين عينيه»[2].

الدرس المستفاد:

إن العبرة من هذه المشاهد هي أن المؤمن ينبغي أن يقف أمام الباطل شامخاً عزيزاً أبي النفس. لأنه يستمد قوته من معين لا ينفذ وإن تسبب ذلك بالهجرة وفراق الأحبة، والتضحية بالنفس والمال كما فعل المهاجرون.

ويجب على المسلم أن يتوكل على الله عز وجل، وينقاد لله سبحانه وتعالى أمراً ونهياً في جميع الظروف والأحوال، لأن الله هو المدبر وهو على كل شيء قدير قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3]، وقال تعالى:

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبدالبر، ص ٢٠٦.
راجع مجمع الزوائد للهيثمي ٤١٩/٩.
(٢) علي بن برهان الدين، السيرة الحلبية، المجلد الثاني، ص ٧٥٦ ـ ٧٥٨.
(٣) سورة الطلاق: الآية ٣.

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

إن المهاجرين يوم خرجوا من مكة إلى الحبشة كانت الهموم تطاردهم وأعداء الإسلام يحيطون بهم من كل حدب وصوب، وتم خروجهم تسللاً بسبب الخوف والحذر، وقضوا مدة طويلة في الغربة والتي كادت المصائب تعصف بهم فيها عصفاً لولا لطف الله عز وجل ثم عدالة النجاشي رحمه الله، خذ هذه الصورة القاتمة وقارنها بالمشهد الذي سبق الحديث عنه أثناء عودة أخر من تبقى في الحبشة، فسوق تجد أنهم عادوا وقد تغيرت أوضاع المسلمين من حالة ضعف واضطهاد وتشرد إلى قوة ووحدة وانتصار تلو آخر ضد المشركين واليهود على السواء، عادوا وقد ارتفعت راية التوحيد في المدينة المنورة وحواليها خفاقة عالية، ودخلت قبائل عربية في دين الله رغبة أو رهبة ولا شك أنهم نسوا الآلام السابقة عندما رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

إن ذلك من ثمار الصبر والجهاد المتواصل والتوكل على الله والعمل الدؤوب المستمر ساعات الليل والنهار، فكم ضحوا لأجل الله. وكم جاهدوا لإعلاء كلمة الله حتى انتصر الحق لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه كما وصف رب العالمين ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[2].

ولأن المهاجرين والأنصار نصروا الله فنصرهم، إذ يقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[3]. ويقول الله في آية أخرى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٤.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.
(٣) سورة محمد: الآية ٧.
(٤) سورة غافر: الآية ٥١.